

المداخل البارزة في العمارة الإسلامية بقصور المغرب الأوسط

The front entrances in the islamic architecture at palaces of central maghreb

رمزي فرشيشي 1 ، عائشة حنفي 2

- معهد الآثار . ramezi.ferchichi@univ-alger2.dz
- معهد الآثار . aicha.hanafi@univ-alger2.dz

الملخص

يهدف هذا البحث إلى إبراز دور المداخل البارزة في الجانب الوظيفي الدفاعي والجانب الجمالي الفني كونها أحد أهم الوحدات المعمارية في العمارة الإسلامية. يرتكز هذا البحث على منهجية علمية تقوم على دراسة تاريخية وتحليلية لمداخل البارزة بقصور المغرب الأوسط ومقارنتها مع بعضها والمداخل البارزة العمارة الإسلامية بصفة عامة، حيث تخوض الدراسة التحليلية في أصول المداخل البارزة ونشأتها وتطورها عبر العصور من الناحية المعمارية والزخرفية نهاية بفترة الدراسة، مع دراسة مقارنة بين مداخل القصور وإبراز أوجه الاختلاف والتشابه بينها. تأتي هذه الدراسة لتعزز نظرية أصول المداخل البارزة القادمة من الشرق خاصة بلاد ما بين النهرين وما ورائهما، كما تعزز الطرح الذي يقول أن المداخل ببلاد المغرب ما هي إلا إعادة صياغة لمداخل الفترة الرومانية لشمال إفريقيا، ومن جهة أخرى فهي وحدة معمارية أصبحت تمثل عنصر دفاعي يشبه برج المراقبة، بالإضافة إلى تأثير هذه المداخل بمختلف التقاليد الفنية التي عرفتتها دول المغرب الأوسط.

الكلمات المفتاحية: مداخل ؛ بارزة ؛ قصور ؛ معمارية ؛ زخارف

Abstract

This research aims to highlight the role of the front entrances in palaces of central Maghreb in the defensive functional side and the aesthetic and artistic side, being one of the most important architectural units in Islamic architecture. This research is based on a scientific methodology based on an analytical study of the origins and development of the front entrances through the ages into the end of the study period, with a comparative study between the entrances of the palaces and the entrances of Islamic architecture and highlighting the differences and similarities. This study comes to reinforce the theory of the origins of the front entrances coming from the East, especially Mesopotamia and beyond, and that it is an architectural unit that represents a defensive element, in addition to being affected by the various artistic traditions known to the countries of the Middle Maghreb.

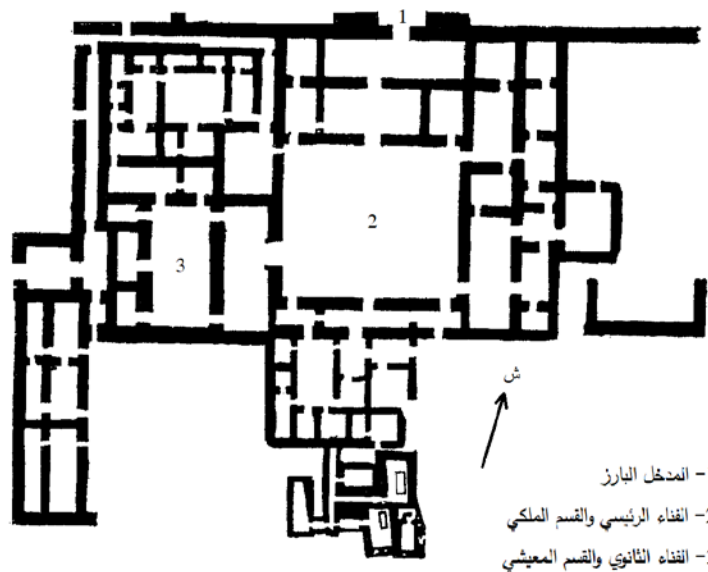
Keywords: 05 : Entrance ; front ; palaces ; architectural ; decors.

مقدمة

تعتبر المداخل المعمارية المنفذ الوحيد المؤدي إلى داخل المدن أو داخل المباني بمختلف أنواعها. وقد عرف الإنسان منذ القديم استعمال المداخل المعمارية البارزة التي يدل إرتفاعها وضخامتها على أهمية المباني، كما قد يعكس إتخاذ المداخل الضخمة والبارزة قوة وعظمة السلطان والملك. وقد ورثت الحضارة الإسلامية عادة إنشاء المداخل المعمارية

البارزة من الحضارات القديمة خاصة من بلاد الرافدين وبلاد فارس، كما تطورت هذه المداخل عبر العصور الإسلامية سواء في المشرق والمغرب من خلال إختلاف أو تشابه تخطيطها أو تصميمها المعماري والزخرفي، أو من خلال التيارات والتقاليد الفنية التي كانت سائدة في تلك الرقعة الجغرافية والعصور التاريخية. ونركز في هذا الموضوع على مداخل قصور المغرب الأوسط لأنه موضوع دراستنا.

تمثلت الدراسات السابقة لهذا الموضوع في مقال قدمه لوسيان قولفين في حوليات معهد الدراسات الشرقية، حيث تناول موضوع المداخل البارزة والمنكسرة في العمارة الإسلامية لشمال إفريقيا، كما كانت بعض الإشارات لهذا الموضوع خلال بعض الأبحاث الأخرى التي لا تتعلق مباشرة بموضوع الدراسة. ومن خلال ما جاء في هذا التقديم يمكن طرح إشكالية مفادها ماهي التأثيرات المعمارية والفنية التي عرفتها المداخل البارزة بقصور المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط؟ ظهرت المداخل المعمارية الأولى منذ العصور القديمة في بلاد الرافدين، حيث تقدمت الواجهات الداخلية والخارجية لمعابد وقصور الآشوريين في نينوى وآشور. فقد كان قصر أداد نيراري الأول بآشور يضم مدخل بارز مزود ببرجين مستطيلين بمثابة حصن على غرار معظم مداخل القصور الآشورية اللاحقة، (المخطط 1) كما احتوى معبد توكولتي نينورتا الأول على مدخلين بارزين في كل من الجهة الشمالية والشرقية.¹



¹- ثروت عكاشة، الفن العراقي القديم: سومر وبابل وآشور، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، دت، ص 418، 420.

المخطط 1 : قصر أداد نيزاري الأول بأشور (عن ثروت عكاشة) بتصريف

كانت مدينة بابل تضم عدة بوابات ضخمة ومداخل معمارية أشهرها بوابة عشتار التي بنيت بالآجر المشوي. كانت هذه البوابة البارزة عن سور المدينة الداخلي تحتوي على برجين ضخمين على جانبي الباب هو نفس التخطيط الذي أتبع في المداخل المعمارية في بلاد الرافدين وبلاد فارس.

ورثت العمارة الإسلامية المداخل المعمارية البارزة عن عمارة بلاد الرافدين وبلاد فارس، فقد تأثرت المداخل المعمارية بالقصور الأموية والعباسية بالتخطيط الرافدي والفارسي حيث كانت هذه المداخل تضم برجين ضخمين على جانبي الأبواب، كانت تقام على مسقط نصف دائري أو مستطيل أو مثنى. كان مدخل قصر المشتى المحفوظ بمتحف برلين يضم برجين ذات مسقط مثنى، كما كان برج مدخل قصر الحير الغربي ذات مسقط نصف دائري، بينما كان برج مدخل قصر الأخيضر ذات مسقط مستطيل.

تميّزت مداخل القصور في العمارة الإسلامية بالضخامة وغالبا ما ارتفعت أبدانها بأطرها وعقودها وحناياها الغائرة حتى بلغت ارتفاع الجدران أو تجاوزتها. وقد تم توظيف على هذه المداخل مختلف العناصر المعمارية كالعقود بأنواعها والأبواب، والزخرفية كالفسيفساء الخزفية والأطر والأفاريز والحنيات التي تعلوها صدفات الجصية.²

لم تصل إلينا نماذج من المداخل المعمارية البارزة في بلاد المغرب قبل الفترة الفاطمية، فلم تسلم المدن والمعالم الأثرية الإسلامية في الفترتين الأغلبية والرستمية من التغيير أو الإندثار الذي سبب قطيعة في انتقال المداخل البارزة بين المشرق والمغرب. ومن النماذج المتبقية من المداخل الأغلبية هناك المداخل الثلاثية بمسجد الأبواب الثلاثة بالقيروان (الصورة 1) ومدخل مسجد أبو المهاجر دينار بمدينة ميلة بالجزائر (الصورة 2)، هي مداخل غير بارزة تضم باب يعلوه عقد أصم. وأول نموذج من المداخل البارزة الذي مازال باقي ومحافظا على معالمه هو المدخل البارز لجامع مدينة المهدية بتونس والذي ساهم في ظهور المداخل البارزة في المغرب الأوسط خلال الفترتين الزيرية والحمادية.

² - يحي وزيري، موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، مكتبة مدبولي، الكتاب 1، القاهرة (مصر)، 1999، ص 11.



الصورة 1 : مدخل مسجد الأبواب الثلاثة بالقيروان (موقع إكتشف الفن الإسلامي)



الصورة 2 : مدخل مسجد أبي المهاجر دينار بميلة (صورة شخصية)

إن الأبحاث الأثرية التي أجريت بمدينة المهديّة كشفت عن آثار قصر الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله بالقرب من القلعة التي ترجع للفترة العثمانية. تلخص هذا الإكتشاف في مدخل بارز عن واجهة المبنى، يؤدي إلى دهليز مسدود يفضي من خلال أبواب جانبية إلى داخل القصر.³ وهو تخطيط إتبعه الأمير الزيري في بناء قصره بمدينة آشير سنة 324هـ/936م، حيث كان المدخل البارز عن واجهة القصر يضم دهليز مسدود يفضي إلى الصحن الكبير عبر ممر منكسر وأبواب جانبية.

كانت مداخل قصر آشير وقصور قلعة بني حماد ووجاية تشبه مدخل جامع وقصر المهديّة. (الصورة 3) كان الشكل المألوف للمداخل الصنهاجية عبارة عن بناء مستطيل من الحجارة يشكل بروز نحو الخارج بمعدل 2 متر أو أكثر ومزود

³- Marçais G; L'art Musulman, quadriage, 2ème éditon, Paris, 1991, p66.

بحنيات أو مشكاوات نصف دائرية تعلوها زخارف صدفية محفورة في الجص.⁴ يتوسط هذا البناء باب ترتفع فوقه قوسرة على شكل عقد نصف دائري أو منكسر، كما يحيط بواجهة المدخل إفريز يمر برجل العقد ليندمج في الداخل مع قاعدة القوسرة. كانت مصاريع الأبواب مصنوعة من الخشب أو المعدن.⁵ يأتي هذا الوصف اعتمادا على مدخل جامع المهدية الذي يحمل نفس مميزات المداخل الصنهاجية بمدينة أشير وقلعة بني حماد وبجاية، إلا أن المداخل بالعواصم الحمادية كانت أكثر تطورا من الناحية الفنية.



الصورة 3 : مدخل مسجد المهدية بتونس (موقع إكتشف الفن الإسلامي)

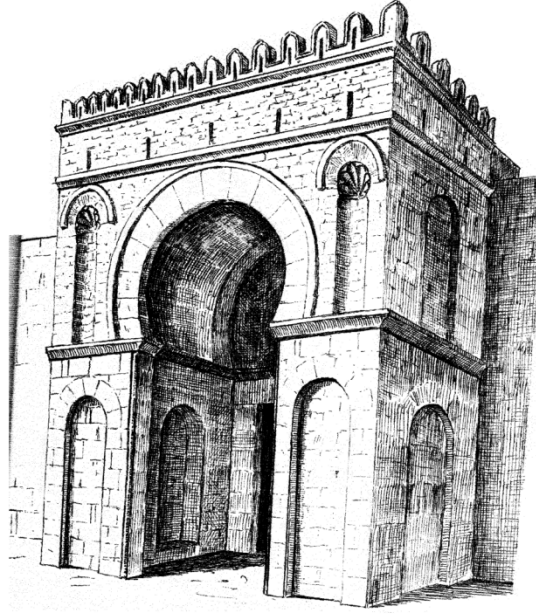
عادة ما يتقدم الأبواب في الأعلى حصن أمامي أو مرمى السهام وظيفته الدفاع عن مدخل القصر. وما عدا مدخل القصر المبني من الحجارة المصقولة، فإن كل البناية مشيدة بحجارة الدبش وهي المادة المستعملة في قصور أشير وقلعة بني حماد وبجاية.⁶ إذ يحتوي قصر أشير على مدخل بارز عن الواجهة الجنوبية مبني بحجارة مصقولة، يمثل بحد ذاته عنصر معماري حصين يشبه برج المراقبة. كما قدمت قلعة بني حماد عدة نماذج من مداخل القصور مثل مدخل قصر

⁴- Golvin L ; Recherches archéologique à la Qal'a des Banu Hammad, ed G.P Maisonneuve et Larose, Paris, 1965, p101.

⁵- يحيى وزيري، المرجع السابق، ص 11.

⁶- Marçais G; Op cit, p91.

المنار ومدخل قصر البحر ومدخل قصر السلام والتي تشبه إلى حد كبير مدخل قصر آشير إلا أنها بنيت بحجارة الدبش.⁷ (الشكل 1)



الشكل 1 : إعادة تصور لمدخل القصر الزيري بأشير (ل. قولفين)

تلخصت زخارف المداخل الصنهاجية في حنيات أو مشكاوات نصف دائرية على جوانب الأبواب تتراوح من حنية إلى حنيتين في كل جانب، كانت تعلوها زخارف على شكل قواقع صدفية محفورة في الجص منفذة داخل قباب نصفية.⁸ كانت هذه الزخارف تقليد فني لزخارف مدخل جامع المهدية بتونس. كما كانت تعلو هذه المداخل شراقات مصنوعة من الخزف المنقوش والمطلي، حيث تم العثور على نماذج منها في الموقع وقريبة من هذه المداخل. تذكرنا هذه الصدفات الجصية بتلك التي كانت موجودة في الواجهة الجنوبية لمئذنة مسجد القلعة والواجهات الرئيسية لبرج المنار.⁹ (الشكل 1)

من خلال دراسة مداخل قصر آشير والقصور الحمادية بقلعة بني حماد تبين أن التخطيط التي إتبعته يوحى بتخطيط المداخل المعمارية التي ترجع للفترة القديمة خاصة مداخل المدن الرومانية. فقد كان تخطيط والشكل العام للمداخل

⁷- Golvin L ; "Notes sur les entrées en avant corps et en chicane dans l'architecture musulmane de l'Afrique du Nord", Extrait des annales de l'institut d'études orientales ; T5, ed La Typo et Jules Carbonel, Alger, 1958, pp221-245.

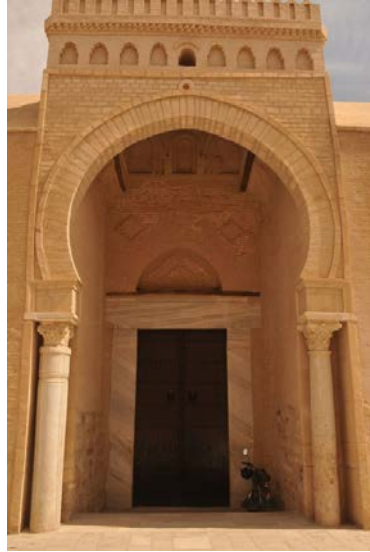
⁸- De Beylié L ; La Kalaa des Beni Hammad, une capitale Bèrbère de l'Afrique du Nord au 11ème siècle, Ernest Leroux, Paris, p56.

⁹-Ibid, p55,56.

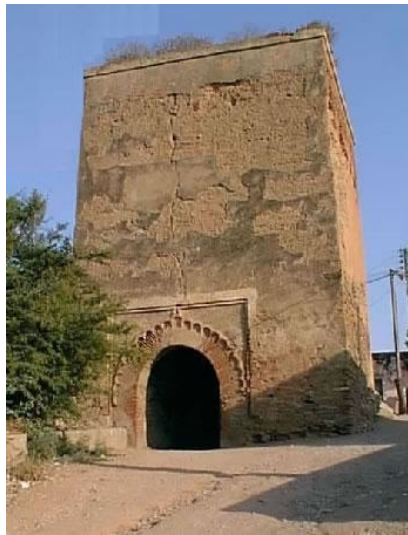
الإسلامية ببلاد المغرب خلال القرنين 4-6هـ/10-12م يشبه المداخل المحلية القديمة، إلا أن الحنايا والمشكاوات التي تعلوها صدقات محفورة في الجص قد أُستلهمت من الزخارف الجصية العباسية في مدينة سامراء.

استوحت المداخل البارزة المغربية الأندلسية أصولها من المداخل الأموية خاصة مداخل جامع قرطبة ومدينة الزهراء، بالإضافة إلى المداخل الموحّدية في المغرب والأندلس، حيث احتفظت بعض المدن والمباني المغربية والأندلسية على مداخلها وأبوابها. ومن النماذج الباقية من المداخل البارزة المغربية الأندلسية نجد مداخل مسجد القيروان الخارجية التي تعلو عقودها سلسلة عقود زخرفية مستوحاة من عقود مداخل مسجد قرطبة (الصورة 4)، باب البحر بمدينة تنس الذي يضم عقد نصف دائري محاط بسلسلة من الفصوص الزخرفية تعلوها كواشي العقود التي كانت تضم زخارف من الجص

أو فسيفساء خزفية (الصورة 5).



الصورة 4 : مدخل مسجد عقبة بن نافع بالقيروان (موقع ويكيبيديا)



الصورة 5 : باب البحر بمدينة تنس (صورة شخصية)

منها أيضا المداخل البارزة المعروفة بمساجد تلمسان والتي تضم معظم العناصر المعمارية والوحدات الزخرفية المعروفة بالمداخل المغربية الأندلسية. (الصورة 6) كما احتفظت المغرب الأقصى ببعض مداخلها مثل مدخل قصبة مدينة مراكش ومدينة فاس وبعض المداخل البارزة ببلاد الأندلس.



الصورة 6 : مدخل جامع سيدي بومدين بمدينة تلمسان (صورة شخصية)

تضم واجهات المداخل البارزة المغربية الأندلسية دعامات تعلوها عقود على شكل نصف دائري أو حدوة الفرس، محاطة على مستوى صنجاتها بسلسلة من الفصوص الزخرفية الصغيرة. زينت كواشي عقود هذه المداخل بزخارف محفورة في الجص أو بفسيفساء خزفية كانت مواضيعها الزخرفية عبارة عن عناصر نباتية خالصة. كان يعلو هذه الزخارف إطار زخرفي نفذت داخله زخارف محفورة في الجص أو بفسيفساء خزفية ترسم مواضيعها أطباق نجمية. كما يمكن أن تعلو هذه العقود وزخارفها سلسلة من العقود الزخرفية أو مجموعة من الكوابل الصماء الخالية من الزخرفة. كانت تتوج هذه المداخل شرفات مسننة أو سقف موشوري أو نصف موشوري من القرميد. (الصورة 7)



الصورة 7 : مدخل مسجد سيدي بلحسن بمدينة تلمسان (صورة شخصية)

لم يحتفظ قصر المشور وقصر السلطان بمنطقة العباد بمدخلهما بسبب التخريب الذي طال هذين القصرين بعد القرن 10هـ/16م. وبما أن الفترة التي بنيت فيها كانت خلال العصر الزياني والمريني فمن المفترض أن مداخلهم كانت تتبع نظام المداخل المغربية الأندلسية التي تضم عقود تعلوها زخارف محفورة في الجص وفسيفساء خزفية تعلو هذه المداخل سقف موشوري أو نصف موشوري من القرميد.

الخاتمة :

ختاما لما سبق يمكن أن نقول أن المداخل المعمارية البارزة في العمارة الإسلامية في المشرق تأثرت بتخطيط مداخل بلاد الرافدين القديم، فقد تذكرنا مداخل القصور الأموية والعباسية بالمداخل المعمارية التي أقامها الملوك في مدينة بابل وفي معابد وقصور مدينة نينوى وآشور. بينما تأثرت المداخل المعمارية البارزة في بلاد المغرب خلال القرنين 4-6هـ/10-12م بتخطيط المداخل المحلية القديمة التي تعود للمدن الرومانية والبيزنطية لشمال إفريقيا حيث كانت تضم هيكل ذات قاعدة مستطيلة، تعلوها عقد مزدوج وقوصرة. كما تأثرت زخارف هذه المداخل الإسلامية بالفنون القادمة من المشرق والمتمثلة في الحنايا التي تعلوها صدفات محفورة في الجص داخل قباب نصفية، وشرفات تعلو هياكل المداخل. ظهرت المداخل المغربية الأندلسية في فترة كان فيها الفن الإسلامي قد خطى خطوة كبيرة في التطور المعماري والفني إبتعد عن الفنون السابقة له، لذلك فقد تأثرت المداخل المعمارية لقصور تلمسان ومعالمها بالمداخل الأموية بجامع قرطبة ومداخل مدينة الزهراء، كما تأثرت بالمداخل الموحدية في مسجد تينمل وجامع الكتبية بمراكش.

المراجع البيبليوغرافية :

- 1) ثروت عكاشة، الفن العراقي القديم: سومر وبابل وآشور، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، دت، ص 418، 420.
- 2) يحي وزيري، موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، الكتاب 1، مكتبة مدبولي، القاهرة (مصر)، 1999، ص 11.
- 3) De Beylié L ; La Kalaa des Beni Hammad, une capitale Bèrbère de l'Afrique du Nord au 11ème siècle, Ernest Leroux, Paris
- 4) Golvin L ; "Notes sur les entrées en avant corps et en chicane dans l'architecture musulmane de l'Afrique du Nord", Extrait des annales de l'institut d'études orientales ; T5, ed La Typo et Jules Carbonel, Alger, 1958.
- 5) Golvin L ; Recherches archéologique à la Qal'a des Banu Hammad, ed G.P Maisonneuve et Larose, Paris, 1965.
- 6) Marçais G; L'art Musulman, 2ème editon, quadriage, Paris, 1991, p66.